

الحنين إلى الشباب في ديوان الخمائل لأيليا أبي ماضي

أ.م.د. فيصل غازي النعيمي
كلية التربية / قسم اللغة العربية / جامعة الموصل
فدى حسين محمد

تاريخ تسليم البحث: 2011/3/3 ؛ تاريخ قبول النشر: 2011/6/27

ملخص البحث:

لعل الحنين إلى الشباب من أكثر الحالات الشعورية التي تحس بها الذات الإنسانية كونها حالة تتولد جراء استنكار الذات الإنسانية لفقدانها ما تعتز به سواء على المستوى المادي أو المعنوي. ومن بين أبرز مظاهر الحنين هو الحنين إلى الشباب ذلك أن هذه المرحلة تمثل أجمل المراحل العمرية وعند زوالها يدخل الإنسان في مرحلة الشيخوخة وآلامها وقد حاولنا في هذا البحث تقديم قراءة لحنين الشاعر أبي ماضي لشبابه، إذ وجدنا فيه مادة تستحق البحث وقد قامت قراءتنا على تمهيد قدمنا فيه نبذة موجزة عن حياة أبي ماضي، ثم تحدثنا عن دلالة الحنين لغة واصطلاحاً، وفي الجانب التطبيقي تحدثنا عن حنين أبي ماضي إلى شبابه إذ وزعناه على ثلاث فقرات تناولنا في الأولى. خوف الشاعر من زوال الشباب ووجدنا أنه كان يدعو إلى استغلال هذه المرحلة، وفي الثانية تحدثنا عن اتخاذ الشاعر للخمر وسيلة مسلية جراء فقدانه للشباب. وتحدثنا في الثالثة عن إحساس الشاعر بفناء ذاته وما يحيط به بعد أن فقد شبابه. ثم ختمنا البحث بأهم النتائج التي توصل إليها.

Yearning to Youth in Al-Khama'il Divan by Ilia Abu Madhi

Assist. Prof. Dr. Faisal G. Al-Nuaimi

Fada Hossin Mohammad

College of Education Dept. of Arabic

Abstract:

Longing to youth is one of the most important phenomena which man feels. This results from his ego remembering the days of youth while he is suffering from old age. The phenomenon of yearning to youth is so prominent and is found in Al-Khama'il collections which deserves and inspires the study. The research is divided into a preface and three sections.

The preface deals with yearning to youth linguistically and terminologically, Abu Madhi's reasons for yearning and providing a summary of his life. The sections deal with the poet's fear of youth's disappearance and resorting to wine for fear of youth end. The poet's yearning came as a result of internal and external factors because of his excessive sensitivity. He is weeping over youth before it comes to an end. He used wine as a means of pleasure. His longing to youth is increased by fear because old age, more than any other stage of life, brings man nearer to his destiny.

التمهيد

أولاً: لمحة عن حياة الشاعر إيليا أبو ماضي

إن المتتبع لمسيرة أبي ماضي يجد أنه لم يعيش حياة طبيعية وذلك لترحاله منذ الصغر من مكان إلى آخر.

فقد ولد الشاعر في لبنان 1891. ثم رحل عنها إلى مصر عام 1902م⁽¹⁾، ولم يُشر إلى سبب رحيله. إذ أكتفى دارسوا حياته بذكر نشاطاته الثقافية حسب. وفي مصر إذ أصدر ديوانه الأول (تذكار الماضي) وهو في مطلع العشرينات من عمره عام 1911م. وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن أبا ماضي يمتلك موهبة شعرية مبكرة⁽²⁾.

إلا أنه لم يلبث في مصر طويلاً إذ هاجر منها إلى أمريكا عام 1902م⁽³⁾. ويبدو أن سبب هجرته من مصر أنه لم يتوفق في العيش مع أبنائها إذ لم تخلو فترة أقامته فيها من التعب والمشاق⁽⁴⁾. وإن المشاق التي لقاها الشاعر في مسيرة حياته الطويلة تعود إلى حساسيته المفرطة وطبيعة طبعه الروحاني الشفاف الذي دفعه إلى الهروب من أرض الواقع الذي كان يعيش فيه إلى بيئة أخرى. يسرح فيها بخياله الواسع وكذلك كان للجانب الاقتصادي يدٌ في معاناته إذ حاول إنشاء بعض المشاريع الاقتصادية الصغيرة ولكنها لم تصمد أمام واقع عالم الاقتصاد القاسي آنذاك⁽⁵⁾.

وقد بقي أبو ماضي في أمريكا حتى توفي عام 1932م⁽⁶⁾. وقد امتاز شعره بالسعي إلى التجديد حتى عده البعض رائداً للشعر العربي الحديث، منهم نازك الملائكة التي رأت أنه يمثل راية شعرية جديدة في ميدان الشعر العربي⁽⁶⁾. لما في شعره من نزعة تجديدية وخصوصية ميزته عن معاصريه.

لقد التقى الشاعر في أمريكا بجماعة الرابطة القلمية وتأثر بكل من جبران ونعيمه⁽⁷⁾، وأصبح من أنصار الرابطة ومن العاملين فيها. وفي عام 1902م⁽⁸⁾ أنشأ جريدة "السمير" في نيويورك وهذه الجريدة ما زالت تصدر إلى اليوم حافلة بنفقات براعته ويراغ المعاونين له في تحريرها⁽⁸⁾.

ولأبي ماضي أعمال شعرية كثيرة هي:

ديوان تذكر الماضي - البعثون والبعثون⁽⁹⁾.

ديوان إيليا أبو ماضي - الجزء الثاني - اللالان والبعثون⁽¹⁰⁾.

ديوان الجداول - اللالان والبعثون⁽¹¹⁾.

ديوان الخمائل - البعثون والبعثون⁽¹²⁾.

ديوان بئر وتراب - البعثون والبعثون⁽¹³⁾. وقد نشر هذا الديوان بعد وفاته.

(1) ينظر: إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر، بنان محمود أبو عيد: 5.

(2) ينظر: الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، سلمى الخضراء الجيوسي: 170.

(3) ينظر: إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر: 5.

(4) ينظر: م. ن: 5.

(5) ينظر: الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، ماهر حسن فهمي: 111.

(6) ينظر: ملامح عامة في شعر إيليا أبو ماضي: نازك الملائكة: مجلة الشعر السنة الثانية/1958/98، نقلاً

عن الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث: 169.

(7) م. ن: 170.

(8) الشعر العربي في المهجر، محمد عبد الغني حسن: 97.

ثانياً: الحنين دلالاته وأسبابه

إن للفظه الحنين في المعاجم العربية أكثر من معنى. ولكن معانيها متقاربة الدلالة فالحنين في لسان العرب هو " الشديد من البكاء والطرب - وقيل هو صوت الطرب كان ذلك في حزن أو فرح. والحنين والشوق وتوقان النفس والمعنيان متقاربان" (1).

ومعنى ذلك أن الحنين والشوق كلاهما يشيران إلى تطلع الإنسان إلى أمر يشده ويجذبه. أما في المعجم الفلسفي فإن الحنان هو " العطف ورقة القلب وهو لا يطلق إلا على العواطف الإنسانية" (2).

ويشرحه المعجم بالقول: " إن مظاهر الحنان قد يعبر عنها باللغة أو بحركات فيزيائية تجسد حالة الشوق داخل جسم الإنسان" (3). أما علماء النفس فيرون أن الحنين هو " الشعور العاطفي الذي ينجم عنه الولع فالحنان فعل شعوري منبعه المعرفة والإرادة" (4).

وهناك أسباب للحنين منها داخلية وأخرى خارجية: فالخارجية تتمثل في ابتعاد الإنسان عن وطنه الأم. وخاصة الإنسان العربي الذي " يخشى فراق الأرض التي نشأ فيها ويحس بالحنين والغربة أينما أتجه إليها" (5).

أما الأسباب الداخلية "فلها خصائصها التي تتجلى في عدم الرضا بالحياة وفي الحنين الغالب على النفس" كحنين الإنسان إلى ماضيه إذا كان غير راضٍ عن حاضره لذا تجد الشعراء في مرحلة الشيخوخة تمتلئ أشعارهم بذكر الشباب والحسرة عليه" (6).

الحنين إلى الشباب في ديوان الخمائل

إنَّ حرصَ الإنسان على الدنيا وحبها للعيش يجعله يقف موقفاً قلقاً من مسألة الموت، ومرور الزمن المتمثل بظهور الشيب ومجيء الشيخوخة، فلقد نال البكاء على الشباب والحنين إليه نصيباً وافراً من شعرنا القديم (فما بكت العرب شيئاً مثلما بكت على الشباب) (7).

لقد كان الشباب رمزاً للقوة لهذا كان الشعراء القدامى يحنون إليه دون المراحل العمرية الأخرى، فالعربي كان يعيش ضمن مجتمع له عاداته وتقاليده التي يجب أن يلتزم بها (8). لهذا كان الشاعر يركز على الحنين إلى الشباب دون الطفولة مثلاً. لأن الشباب رمز للقوة كما أشرنا سابقاً. وإن الإحساس بمرارة الشيخوخة يدفع الإنسان

(1) لسان العرب، ابن منظور، مادة حنن: 749.

(2) جميل صليبا: 500.

(3) م. ن : 500.

(4) ينظر: موسوعة علم النفس، د. أسعد داغر: 107.

(5) الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث: 37.

(6) الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث: 111.

(7) العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه الأندلسي: 46/3.

(8) ينظر: الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، دراسة نقدية، صلاح عبد الحافظ: 99.

- الشاعر - إلى تذكر أيام شبابه كرد فعل على تعاسة الحاضر وتفتته⁽¹⁾. ذلك لأن المجتمعات تفرض على المسنين قيوداً وتحدد أدوارهم في الحياة⁽²⁾. وهذا ما يفسر لنا حب الإنسان العربي لشبابه واعتزازه به. ولا شك أن أبا ماضي قد تأثر بالشعراء القدامى، فكل شاعر لا يمكنه التخلص من تأثير السابقين عليه (فاللغة تفرض عليه - شاء أم أبى - مكتسباتها والمحتوى الثقافي لذاكرتها)⁽³⁾. ومما لا شك فيه أن الشاعر يتأثر بالمراحل التاريخية والبيئة الاجتماعية المحيطة به⁽⁴⁾. وإن حنين أبي ماضي ذو خصائص تميزه عن حنين سابقه وذلك بسبب عوامل داخلية تتعلق بنفسيته. وعوامل خارجية بسبب طبيعة عصره وظروف حياته. ويمكن لنا - من خلال شعره - حصر مظاهر الحنين عنده في ثلاثة جوانب وهي:

- 1- الخوف من زوال الشباب.
 - 2- اللجوء إلى الخمر بوصفه وسيلة هروبية.
 - 3- الشعور بالنهاية بعد رحيل الشباب.
- وهذه هي المحاور التي سوف يدور حولها البحث عند التطبيق.

1- الخوف من زوال الشباب

إن القارئ لشعر أبي ماضي يجد أنه يتخوف من مجيء الشيخوخة وهو في مرحلة الشباب. لذا فهو يدعو إلى استغلال هذه المرحلة - أي الشباب - لإشباع الرغبات جميعها قبل أن تأتي مرحلة الشيخوخة ويزول معها شبابه. إذ نجد ذلك في قوله⁽⁵⁾:

بكيّت الصبا من قبل أن يذهب الصبا	فيا ليت شعري ما تقول إذا ولى!
توهمتّه يبقى إذا أنت صنته	عن الشفة الحمراء والمقلة الكحلا
وخلت الهوى جهلاً فلم يكن الهوى	أخيراً سوى الأمر الذي خلته جهلاً
خشيت عليه أن يطوحه الهوى	فألقاك هذا الخوف في الهوة السفلى
أتلجم ماء النهر عن جريانه	مخافة أن يفنى! إذن فأشرب الوحلا
سيبلى الصبا مهما حرصت على الصبا	فدعه يذوق الحب من قبل أن يبلى

(1) ينظر: الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي (البنية والرؤيا)، كمال أبو ديب: 436.

(2) ينظر: نمو شخصية الفرد والخبرة الاجتماعية، سونيا هانيت، جيفر هلتن، ت. قيس النوري: 369.

(3) سوسيولوجيا الغزل العربي (الشعر العذري نموذجاً)، الطاهر لبيب: 11.

(4) ينظر: حول دراسة النص الشعري، إسماعيل أحمد العالم، مجلة جامعة دمشق، مج/11، ع 43-44،

1995: 194.

(5) الخمائل، إيليا أبو ماضي: 152-153.

إن الشاعر عبر عن فكرته من خلال تجاوز نفسه التي تعاني من صراع داخلي فلهذه رغبة في الحب لكنه يخاف من تبعاته لأن الحب قد يضر بصحة الإنسان كما هو متعارف عليه. حتى أن محمد بن جعفر السراج قد ألف كتاباً في ذلك سماه (مصارع العشاق) أحصى فيه العشاق الذين أهلكهم الحب. لكننا عندما نقرأ القصيدة نرى أن الرغبة هي الغالبة ودافع الخوف كاد أن يغيب تقريباً منها إذ إننا لا نكاد نستدل عليه إلا من خلال ضمير المخاطب (ت) كما نلاحظ أن دافع الخوف نفسه لا يريد أن يخوض التجربة ويدل عليه الأفعال المتصلة بتاء المخاطب (بكيّت - توهمت - خلت الخ). أما الدافع الآخر فيرى في الشباب مرحلة نشاط وحيوية ومغامرة ويدل على ذلك الأفعال التي تحمل دلالة الحاضر والمستقبل (أشرب - يبلى - دع) إلى جانب ورود الفعل المضارع (أتلجم) المسبوق بأداة الاستفهام (الهمزة) وهذا الأسلوب يحمل دلالة الاستنكار.

إن ثقة الشاعر من زوال الشباب تدعوه إلى إشباع رغباته ولاسيما الحب لأنه أساس الحفاظ على النوع⁽¹⁾. نلتمس ذلك في قوله (فدعه يذوق الحب من قبل أن يبلى) فالشاعر يرى أن على الإنسان أن يشارك في الحياة مشاركة جادة بلا خوف من المستقبل. لأن تفكيره بالمستقبل يجعله يشعر بمأساة الحياة. لأن في نهايتها الموت. أن فكرة أن الإنسان لا يعيش إلى الأبد جعلت الشاعر يريد أن يشبع من ملذات الحياة ويعيش حياة مرح وأنس. فما هو يقول⁽²⁾:

فما ديمة صبت على الصخر ماءها فما أنبتت زهراً ولا اطلعت بقلا
باضيع من برد الشباب على أمرئ إذا استطعمته النفس أطعمها العذلاً

فهو يرى في هذه الأبيات أن نهى النفس الطامعة وعدم الانقياد لها أمر غير صحيح لأن الشباب قصير وهو زائل لا محالة. وعندما يزول لا يبقى للحياة أي طعم. ففي الشباب القوة والصحة أما في الكهولة الضعف وتدهور الحال ولا ننسى عدم رغبة الفتيات به وقد أكد الشاعر على ذلك من خلال حديثه عن المزن التي تصب مياهها على الصخر، إذ أنها لا تنبت شيئاً ولا تتفتح بشيء. وإن عدم استغلال مرحلة الشباب أشبه بضياح الماء على الصخر نجد ذلك في أسلوب التوكيد بـ (الباء) التي جاءت مقترنة بالخبر لتؤكد على أن ما جاء في قول الشاعر من أفكار وهواجس لا مفر منها. هذا من جانب.

أما من جانب آخر نراه يخاطب الزهرة ويدعوها إلى أن تستغل أيام صباها طالما هي زاهية ومنتقحة وأن تشبع رغباتها طالما في استطاعتها ذلك. نجد هذا في قوله⁽³⁾:

فاستتفذي في الحب أيام الصبا واسترثديه فهو أصدق مرشد

إن الحب في نظر أبي ماضي ليس حالة طائشة. بل هو دليل مرشد وعلى ذات الإنسان أن تصغي إليه في مرحلة الشباب.

(1) ينظر: شوينهاور، عبد الرحمن بدوي: 131.

(2) الخمائل: 153.

(3) م. ن: 21.

إن خوف الشاعر من زوال الشباب جعله لا يستلذ بما أعطته له الحياة من نِعَم لأن شبح الخوف من زوال الشباب مائل أمام ناظره حتى في لحظات الصفاء والأنس. ففي قصيدته (أنتِ والكأس) يرى أن حبيبته سوف تهجره مستقبلاً وإن كانت هي في تلك اللحظة بين يديه منطلقاً بهذا التفكير من خلال إطلاعه على تجارب السابقين حيث وجد عندهم أن المرأة تفتقر إلى الوفاء والإخلاص. فما هو يخاطبها قائلاً⁽¹⁾:

أنتِ والكأس في يدي	فلمن أنتِ في غدٍ؟
* * *	* * *
قلتُ: هل تحفظين عهد	دي إذا ضاع عسجدي؟
* * *	* * *
إنما هل يدوم لي	حبك المشرق الندي
إن حنى الدهر قامتي	ومحا الشيبُ أسودي
وانطوى رونق الصبا	مثل برق بقدفد

إن رؤية أبي ماضي هنا كأنها امتداد لرؤى الشعراء السابقين له. إلا أن الاختلاف فيما بينهما هو أن الشعراء السابقين كانوا يتهمون المرأة بعدم الوفاء والإخلاص. أما أبو ماضي فإنه لا يتهم المرأة وإنما يتخوف من مجيء الشيخوخة وظهور الشعر الأبيض في رأسه وانحناء قامته وهذه الأشياء بحد ذاتها تجعل النساء تنفر منه وتبتعد عنه لأن المرأة كما هو معروف عنها تبحث عن الرجل القوي المعافى الممتلئ شباباً وقوة. وهذا ما سوف يفتقر إليه أبو ماضي بعد فترة من الزمن أي بعد زوال شبابه وصباه.

2- اللجوء إلى الخمرة هروباً:

إذا كان زوال الشباب عند الشعراء السابقين لأبي ماضي يجعلهم يشعرون بمرارة العيش والانعزال عن الآخرين، وهذا يحدُّ من حركة المسنين منهم داخل المجتمع ومن فرصهم في الحياة. فغالباً ما نراهم يحنون إلى أيام الخوالي ومنهم شاعرنا أبو ماضي الذي كان يرى أن الحياة تفتقر إلى المعنى وتشعره بالعزلة إلا أن عزلته كانت ناجمة عن دوافع داخلية لا خارجية. فلم تعد تهمه أمور الحياة ولا مشاغلها ولذلك لجأ إلى الخمرة هروباً بها من الواقع الذي يعيشه. فما هو يقول⁽²⁾:

لم يبقَ ما يسليك غير الكأس	فاشرب، ودع للناس ما للناس؟
ذهب الشبابُ على الشجون تبثها	لأخ مـؤاسٍ أو لغير مـؤاسٍ
وعلى الحياة تحار في أطوارها	وتحار تعليـل كل نطاسي
ثم استفتت وليس في روض المنى	إلا الضبابُ وغير شوك اليأس

(1) م.ن : 146 - 148.

(2) الخمائل : 69-70.

وجراحُ نفسٍ ينظرُ الآسي لها فيعود محتاجاً لآخر آس

نلاحظ في الأبيات السابقة أن الشاعر كان يحدث نفسه ويشكو لها من ألم الوحدة فليس هناك ما يسليه غير الإدمان على شرب الخمر وأكد هذا الشيء أسلوب القصر الذي استخدمه الشاعر في (ما النافية) و (غير) الاستثنائية. لذهاب ذلك الشباب الذي كان كل شيء فيه جميل حتى ألمه. فتراه يخاطب ذاته بقوله (دع للناس) وهذا الخطاب تولد جراء انعزاله عن الناس وهروبه من الحياة العامة بواسطة شربه للخمر، وهو بهذا يتجاوز الأعراف والتقاليد في المجتمع بعد أن كان لا يخفى شيئاً عن الآخرين من أصدقاء أو غير أصدقاء، نلمس ذلك بقوله (لأخٍ مواسٍ أو لغير مواسٍ). إذ نلاحظ أن الشاعر قد صحا على حقيقة الحياة التي كانت تسحره سابقاً فما هو يراها حلم لم يدم فما أن رحل شبابه حتى أفاقَ على حياة خاوية لا يجد فيها ما يسره. حتى الحدائق الغناء التي كانت تبعث فيه الأمل لم يجد فيها أماناً أيام الشباب التي كان يحلم بها. فلم يعد في الرياض الاعتمة الضباب وشوك اليأس. لقد فقد الأهل الذين كان يحبه ووجد نفسه يثير شفقة الآخرين إنَّ وهم الشباب عند أبي ماضي أفضل بكثير من حقيقة الحياة المأساوية التي أفاق عليها نلاحظ ذلك في البيت الأخير الذي صور لنا بؤس الشاعر ومعاناته المريرة في مرحلة الشيخوخة.

ولكن الشاعر لم يتخذ من الخمرة وسيلة للالتقاء بالآخرين والاختلاط بهم مثلما كان يفعل السابقون. بل اتخذها وسيلة تمكنه من الابتعاد عنهم ومن نسيان ألم زوال الشباب والحنين إليه ولو بشكل مؤقت وقصير. إن مأساة فقدان الشباب عند الشاعر جعلته يبتعد عما يحيط به وينكب على ذاته ليعاني مأساة الوحدة دون مواسٍ. وقد تبلور ذلك من خلال تكرار حرف (السين) - (13) مرة. فصوت السين كما هو معلوم هو صوت صغيري يوحي بالأسى والألم⁽¹⁾. وقد جاء في السياق محاكياً للألام الداخلية التي يعاني منها الشاعر هذا وتظل الخمرة وسيلة الشاعر للهروب حتى بعد زوال شبابه إذ يجد فيها ما يسليه ويلهيه عن مآسي الواقع لأنها تغيب الوعي عن الواقع لأن الواقع كما يرى هو مجلبة للهموم إذ يقول⁽²⁾:

يا أيها الساقى ادر كأساتها
كمشاعل الرهبان في الأغلاس
وانس الهموم فليس يسعد ذاكره
واسقِ النجوم فإنها جلاسي
واصرع بها عقل النديم ولبه
ما نعص الحاسي كعقل الحاسي

إنه يطلب في هذه الأبيات من الساقى أن يدير كؤوس الخمر. ولكنها خمرة غير عادية فهي تشبه مشاعل الرهبان في الليالي المظلمة. وإن الخمرة التي يريدها الشاعر ذات طابع قدسي تكاد تهدي النائمين وترفعهم إلى مراتب عليا وتلغي العقل والتذكر لأن الذكريات لا تتفجع بل تعمق الإحساس بالمرارة جراء فقدان الشباب. كما أن العقل يذكر الإنسان بنهايته من جانب ويدفعه إلى التمسك بتقاهات الحياة من جانب آخر. والعقل هنا هو مجلبة لبعث المآسي وقتل لحظات السعادة (ما نعص الحاسي كعقل الحاسي) في حين أن الخمرة ترتقي بصاحبها إلى درجات عليا وتضعه في أحضان النجوم.

(1) تحاليل اسلوبية، محمد هادي الطرابلسي: 93.

(2) الخمائل: 72.

وتبقى الخمرة هي الوسيلة الوحيدة أمام الشاعر لنسيان الشباب إذ يعبر عن طريقها إلى جمال الحياة في الماضي فما هو يقول⁽¹⁾:

وإن أشرب الصهباء أعلم أنني شربتُ بشاشات الزمان الذي ولى
وما همسته الريحُ في أذن الثرى وما ذرّفت في الليل نجمته الثكلى

إن الشاعر هنا يتحسر عن فقدان حياته الماضية ويعبر عن حالة البؤس التي تحيط به والتمثلة ببكاء النجوم فالنجمة كما يرى الشاعر تبكي لفقدان حبيب أو عزيز عليها. فالشعراء كانوا كثيراً ما يستغلون الطبيعة لوصف حالة خاصة بهم فهم بهذه الحالة ينسبون على الطبيعة صفات الإنسانية من معاناة وشكوى وشجون مخضعين العالم الخارجي للعالم الداخلي الذاتي لهم مسقطي الأنا وما تحسه على العالم⁽²⁾.
لذلك نرى أن الخمرة وسيلة مخلصمة من الأسى والحزن وهروب من الواقع المؤلم المحيط به فنراه يقول في أبيات أخرى⁽³⁾:

يا نديمي إلى الكؤو س ويا منشداً انشد
زد لي الخمر كلما قلت : " يا صاحبي زد "
لا تقول أي موسم ذا، فذا يوم مولدي!
أنا، ما زلت في الحيا ة، لي شبابي وسؤدي
ولجيني وعسجدي وخلاللي ومحتدي

فالشاعر هنا يخاطب صاحبه ونديمه بأن ينشد على مسامعه الأغاني المطربة الشجية كما يطلب منه أن يزد له من الخمر ويحثه على الزيادة، نلاحظ ذلك في أسلوب الطلب والتوكيد في قوله (زد) كما أنه يخبره بأن لا يسأل عن أي زمان هم فيه أو أي موسم لأن ما كان متعارف عليه في الماضي أن شرب الخمرة لها أوقات تكون فيها مرغوبة جداً ويزداد الإقبال على شربها ولذا نرى أن الشاعر هنا يطلب من صاحبه أن لا يسأله عن الزمن الذي هم فيه لأن اليوم الذي هو فيه هو يوم ولادته لأنه استخدم الخمرة ليهرب من أيام الحاضر ومن مرارتها.

ونلاحظ أن الشاعر في البيتين الأخيرين يفخر بنفسه ويتباهى بأنه ما زال على قيد الحياة على الرغم من زوال شبابه. فالخمرة جعلته يشعر بأنه ما زال شاباً وأنه في غنفوان شبابه فما هو يفخر وببهاهي صاحبه بأن له السلطة والسيادة وأنه ما زال شاباً وما زال قوياً يستطيع أن يعيش مثلما كان يعيش سابقاً. وهذا بحد ذاته دليل على أن الشاعر استخدم الخمرة ليهرب من واقع الحياة المرير الذي كان يعيش فيه ومن شعوره باقتراب نهايته وانتقاله إلى عالم آخر عالم فان لا رجوع منه.

3- الشعور بالنهاية بعد زوال الشباب

(1) الخمائل : 86.

(2) ينظر : الوعي والفن، غيورغي غاتشف، نوفل نيوفي: 118.

(3) الخمائل: 151.

إذا كانت الخمرة هي الوسيلة المنقذة للشاعر من أسى الفقد والخوف من فقدان الشباب وهي التي تساعد على أن ينسى أو يتناسى هذا الفقد فإنها لن تكون حاضرة دائماً لتساعد في ذلك. إذ إن مساعدتها له لها فترة محددة وتنتهي ليعود من جديد إلى مرحلة الوعي والشعور بالواقع ويسقط في أحضان الخوف والألم. فما هو يتخوف من شبح النهاية ويرى أن الأشياء تنقتر إلى الدوام وأن كل مظاهر الحياة من جمال ومتع قابلة للزوال لذلك يكون الاستمتاع بها محدد بفترة قصيرة ماضية سرعان ما تزول. فما هو الشاعر يخاطب نفسه ويقول لها(1):

كان زمانٌ كنت تستأنسين بكلٍ وهم خادع كالسراب
حتى إذا أسفر وجهه اليقين رأيتُهُ كالوهم شيئاً كذاب
دنيا الورى ليلٌ وصبح مبين وليس في دنياك إلا الضباب
وما لاحت الأشجار للناظرين إلا رأيت شبح الفأس!
ولا سمعت الكأس ذات الرنين إلا سمعت حطمة الكأس!

إن الشاعر في هذه الأبيات يتحدث عن زمن ماضٍ كان لاهٍ فيه لا يفكر في مدى حقيقة الأشياء. لأن اندفاع الشباب وطيشه يسهل فيه الخداع. ولكن غشاوة الوهم سرعان ما زالت وانقضت مع زوال الشباب (اسفر وجه اليقين) ويبدو أن الشاعر يتأسف ويتحسر لفقدان شبابه من خلال مخاطبته لنفسه بـ (تستأنسين) التي ما زالت مندفعة بعنفوان الشباب فيها. في حين أن العقل يحاول إعادتها إلى أرض الواقع. وهذا جراء صراع داخلي بين النفس والعقل يكشف عن ابتعاد الشاعر عن ذاته وفي الوقت نفسه يكشف عن اغترابه عن الوجود المحيط به(2). ونلاحظ أنه قد جعل الناس جميعهم يعيشون في ظل زمن لا تمتزج فيه الأضداد وهذا واضح في البيت الثالث (ليل - صبح) أما هو فيعيش في زمن ضبابي. ولا يرى جماليات الحياة مسرة لأنه ما أن يسر ويفرح بمظهر معين حتى يرى نهايته أمامه. فالأشجار برونقها وجمالها وشموخها لا يسره مظهرها لأنها تتزامن مع رؤية مجتثها (الفأس) وكذلك رنين الكأس وما يبعثه من نشوى ومسرة للشارب لا يروق للشاعر لأنه يتخيل تحطمه في أية لحظة. إننا نستشف من ذلك أن أبا ماضي كان رومانتيكياً (غريباً في عصره بشعوره وأحاسسه) (3). فهو لا تشغله المذات الزائلة وإنما كان يبحث عن ما يتمتع بالدوام والاستمرار. ونجد أن نهاية الأشياء يقيناً ماثلاً أمام ناظري الشاعر حتى بعد أن فقد شبابه. إذ لم يعد جمال الحياة ومغرياتها يجذب اهتمامه طالما أنها ماضية إلى الزوال فما هو يخاطب الزهور ويعطيها. صفات إنسانية- بأن تستغل تفتحها لأن حسناتها وجمالها غير دائم إذ يقول(4):

وكأنني بك حين تهتف قائل للزهر: إن الحسن غير مخلد

(1) الخمائل: 65- 66.

(2) ينظر: اقنعة النص، سعيد الغانمي: 63.

(3) الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث: 111.

(4) الخمائل: 21.

فاستنفذي في الحب أيام الصبا واسترشد به فهو أصدق مرشد
 إن اختيار الشاعر للزهر دون غيره هو لغاية واضحة، وذلك لأن الزهور تتمتع بصفات جمالية تجذب
 الإنسان والحيوان على حد سواء. ولكنها ما أن تذبل حتى يتلاشى جمالها وتقعد جاذبيتها لهذا اختارها الشاعر
 ليشبهها بالإنسان في أيام شبابه وصباه فما هو يدعوها إلى استغلال ما هو متوفر لها من ملذات ومتع في قوله
 (فاستنفذي في الحب أيام الصبا) لأن الحب - حسب رأي الشاعر - لا يمكن أن يكون جميلاً وممتعاً إلا في
 مرحلة الشباب. أما بعد زواله فإن الإنسان بوجه عام والشاعر بوجه خاص يتحول إلى كائن ضائع ستختتم حياته
 في النهاية بالموت فما هو يسأل ويتسائل ويقول⁽¹⁾:
 أنا، من أنا يا ترى في الوجود؟ وما هو شأنني وما موضعي؟
 أنا قطرة لمعت في الضحى قليلاً على ضفة المشرع
 سيأتي عليها المساء فتغدو كأن لم ترقرق ولم تلمع
 أنا نغمة وقعتها الحياة لمن قد يعي ولمن لا يعي
 سيمشي عليها السكون فتمسي كأن لم تمر على مسمع
 أنا شبح راکض مسرع مع الزمن الراكض المسرع
 سيرخي عليه الستار ويخفي كأن لم يجد ولم يهطع
 أنا موجة دفعتها الحياة إلى أوسع فأوسع
 ستتحل في الشط عما قليل كأن لم تدفع ولم تدفع
 فيا قلب لا تغرر بالشباب ويا نفس بالخذ لا تطمعي
 فإن الكهولة تمضي كما تولى الشباب ولم يرجع

نلاحظ في الأبيات السابقة أن ذروة الضياع لدى الشاعر تتمثل في تساؤله الكثير فهو يبحث عن نفسه
 في هذا الوجود ويعبر عن إحساسه بالضياع أمام حركة الزمن فعلى الرغم من موهبته الشعرية وثقافته الواسعة إلا
 أنه محكومٌ عليه بالزوال (سيأتي عليه المساء) فليس هناك ما ينتظره سوى الزوال ويدل على ذلك الفعل
 المضارع (يأتي) الذي سبق بحرف الاستقبال (السين) الذي يشير على قرب حدوث الحدث. إن إحساس
 الشاعر بحتمية الموت برز من خلال فقدانه لشبابه وزوال حيويته التي ما استمرت - حسب اعتقاد الشاعر -
 سوى فترة قصيرة. نلمح هنا في قوله (لمعت في الصخر قليلاً) هذا اللمعان الذي حدث على (ضفة المشرع)
 هو مكان متحرك أي غير مستقر فهو دليل على مرور الأيام والانتقال من حالٍ إلى حالٍ وعلى أية حال فإن
 الأمور قد تساوت في نظره ولم يعد يشكو من أسى الكهولة لأنها زائلة كمرحلة الشباب وهذا نجده في قوله⁽²⁾:

(1) الخمائل : 176-177.

(2) م. ن. : 177.

فإن الكهولة تمضي كما تولى الشباب ولم يرجع
لقد تساوت السعادة والبؤس في نظره كما تساوت مرحلة الكهولة والشباب لأنهما لا يتمتعان بالخلود.
كما أن الكهولة لا تؤثر في الشاعر طالما أنها زائلة بل أنه متأكد من زوالها حيث أنه يعلم أنها مختومة بالموت
كما كان الشباب مختوماً بالكهولة وهاتان الحالتان متشابهتان في زوالهما وانقضاء مدتهما في حياته.
وفي النهاية نرى أن الشاعر يستسلم للزمن ولا يحتج على ذهاب شبابه ومجيء الكهولة والشيخوخة.

الخاتمة

بعد رحلتنا مع الحنين إلى الشباب عند أبي ماضي في ديوانه الخمائل ظهر لنا أن حنين أبي ماضي
لشبابه أثرت فيه عوامل خارجية تمثلت بطبيعة العصر والحالة الاقتصادية أما الداخلية فتعود إلى حساسيته
المفرطة وقد بدا أبو ماضي خائفاً من زوال الشباب قبل الأوان لذا نراه يدعو إلى استغلال مرحلة الشباب والتمتع
بها لأنها مرحلة زائلة. وفي أحيان أخرى يتخذ من الخمر وسيلة مسلية عن الأسى الذي يلاقه جراء فقدانه
لشبابه. فهو لا يتخذ من الخمر وسيلة للمتعة والالتقاء بالآخرين كما هو الحال عند الشعراء القدامى وإنما يجد
فيها العزلة التي تبعده عن الواقع والناس ولكن الخمر ليست حاضرة دائماً ولم تستطع تسليته عند فقدانه لشبابه
ومن هنا نجده يحن إلى الشباب ويبكيه ويتألم من حتمية الموت فقد عبر عن مأساة قصر الحياة وحكم الفناء بعد
أن فقد شبابه من خلال حديثه عن زوال متع الحياة وافتقارها إلى الدوام وهذا ما جعله يرى أن كل متعة زائلة
ومحكومة بالتلاشي.

المصادر والمراجع

أولاً : الكتب

- ١- الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، سلمي الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، والقلائد والبغداديين.
- ٢- اقنعة النص، سعيد الغانمي، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، ط ١، والقلائد والبغداديين.
- ٣- إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر، إعداد بنان محمد أبو عبد، دار الوضاع للنشر والتوزيع، عمان، القلائد والبغداديين.
- ٤- تحاليل اسلوبية، محمد الهادي الطرابلسي، دار الجنوب للنشر، تونس، القلائد والبغداديين.
- ٥- الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، ماهر حسن فهمي، منشورات معهد البحوث والدراسات العربية، دمشق، القلائد والبغداديين.
- ٦- ديوان الخمائل، إيليا أبو ماضي، دار العلم للملايين، بيروت، القلائد والبغداديين.
- ٧- الرؤى المقنعة نحو منح بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، (البنية والرؤيا)، كما ابو ديب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، القلائد والبغداديين.
- ٨- الزمان والمكان وأثرها في حياة الشاعر الجاهلي وشعره (دراسة نقدية نصية)، صلاح عبد الحافظ، دار المعارف، القاهرة، القلائد والبغداديين.
- ٩- سوسيولوجيا الغزل العربي، الغزل العذري نموذجاً، الطاهر لبيب، ت. مصطفى المسناوي، الدار البيضاء، بيروت، ط ١، والقلائد والبغداديين.
- ١٠- الشعر العربي في المهجر، محمد عبدالغني حسن، مكتبة الخانجي، القاهرة، القلائد والبغداديين.
- ١١- شوبنهاور، عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، القلائد والبغداديين.
- ١٢- العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الاباري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، القلائد والبغداديين.
- ١٣- لسان العرب المحيط، ابن منظور، إعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، د/ت.
- ١٤- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، بيروت-لبنان، القلائد والبغداديين.
- ١٥- موسوعة علم النفس، إعداد أسعد رزق، مراجعة عبدالله الكريم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، والقلائد والبغداديين.
- ١٦- نمو شخصية الفرد والخبرة الاجتماعية، سونيا هانيت، جيفر هلتن، ت. قيس النوري، دار الشؤون الثقافية، بغداد، والقلائد والبغداديين.
- ١٧- الوعي والفن، غيورغي غاتشف، ت. نوفل نيوفي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، القلائد والبغداديين.

ثانياً: الدوريات

- ١- حول دراسة النص الأدبي، اسماعيل أحمد العالم، مجلة جامعة دمشق، مجلد ١١، ع ١، القلائد والبغداديين.
- ٢- دمشق، القلائد والبغداديين.